قصّة قصيرة

رفعت الى شمس الحياة يديها...

مصطفى الكيلاني

الجدار.

يومَ أطلقوا عليه النار في قَبْو ذلك الزمن كان رجال الحيّ أمام جهاز التلفزيون يُشاهدون حَفْلاً ساهراً.. يأكلون ما طاب من الطعام.. يشربون كؤوس الشاي.. يضحكون.. مرّت ساعات وهم تَحْت الأغطية القُطْنيّة ينعمون بالدفء ويُمتّعون أبصارهم بوَجْه المُغنّية الحسناء وينتظرون أدْوَارهم حينما ينقلب الموقف إلى جدّ على الفراش..

واصل الحارس طريقه.. نَزَل السُلّم.. التوى به إلى اليمين ثُمّ إلى الشمال.. سار حتّى آخر الممرّ، ونزل سُلّماً ثانياً.. سمع أزيز رصاص وحشرجات قتيل في النزع الأخير.

الرّيح وبُقَع الدّم والجثّة الهامدة حذو الجدار.

الجدار.

لَمْلَمتْ فرحها البدائيّ، وعلى جبينها ظلال شفق حزين وآثار طُيُورٍ هَاجرت، وفي العينيْن صيحات مُدُن وأمواج عاتية وضحك دمويّ حالم إلى حَدّ النسيان ومُهرة عشقٍ تركض.. تركض صوب الفجر.

تهدّم الجدار.

لم يكن القفص قفصاً، ولَيْلَى كَعُصفور قذفته الأسلاك إلى الضفّة الأخرى بعيداً عن نُباح الكلاب أَسْدَلَتْ شعرها ورفعت إلى شمس الحياة يديْها ثمّ دفعت الطفل القتيل إلى قاع الموجة بين الشفق والحريق كي يغتسل بالنّور وينام عاري الرّوح. الجدار. تهاوت الحجارة. وجوه القَتَلَة الخُطَب موجاتُ التصفيق ضحكاتُ السجّان صريرُ الباب الأغلال الصراخُ الرّصاصُ أصواتُ الأحذية العسكريّة الأنينُ الحشرجات..

تَعَالى الغبار.. طار العصفور.. حلّق بعيداً عن اليابسة.

سألها الطفل وهو في النَزْع الأخير: هل أُولد فَجْراً؟

قبّلتْ جبينه بلَهْفة الأمّ المُتعطّشة إلى بريق عينيه وردّدت: نموت ثُم نُولَدُ مَعاً.

صوتُ باشليه(*) يمتزج برائحة الغبار وصورة الجدار المُتَهَدّم ودم جُرْح في قاع الذاكرة ووجه الأمّ المُتَرجْرج بين العَرَق البارد وَبقع الماء المتراقصة على أرض من الوَحل في المكان المُقابل حيث خيوط المطر وأضواء السيّارات الشّاحبة تمرّ.

الجدار.

مرّت أعوام وأسرار القَبْو لا يَعْلمها إلاّ الجنود وحارسٌ أعمى أحالوه على المعاش بعد أن أبصرهم في تلك اللّيلة يجرّون القتيل إلى ركن مُظْلم.. لم يَدَعُوه دون مُراقبة.. ظَلّوا على صِلَةٍ به، يُرسلون إليه الهَدَايا: قطَعاً من الشكلاطة وملابس مُسْتَعْمَلَة وَصُوَراً من الحرب وتسجيلات سهرات ماجنة تتخلّلها أغنيات مُثيرة وشهيق امرأة في وقت المُضاجَعة وصراخ طفل كهل تُحرَقُ شفتاه بِبَقايا السجائر.. كان يدعوهم إلى الجلوس.. يتلَمّس رؤوسهم بِعَصاه واحداً واحداً ويُذكّرهم بِلَيْلَة القبو، فَيَتضاحكون ثمّ ينصرفون.. سألوه في آخر زيارة: أين جُثّة القتيل؟ سكت، فأطلقوا عليه نيران مُسَدَّساتهم وعادوا إلى منازلهم كي ينعموا بالدفء ويُشاهدوا الحفل الساهر إلى ساعة متأخّرة من الليل على شاشة التلفزيون ويُمتّعُوا أبصارهم بوجه المغنّية الحسناء والأجساد الرّاقصة..

الحكاية قديمة، ولم يعد السَّارد يذكر تفاصيلها..

ولكنّ ليلى تركب اليوم فَرَحها.. تبتسم لِوَجْهها في المرآة.. تُقبّل جبين الطفل.. تُرْضعه لَبَنَ حنينها..، فيتهدّم الجدار.. يتعالى الغُبار.. يطير العُصفور.. يُحلّق بعيداً عن اليابسة.

تونس ـ آذار (مارس) ١٩٩٢

(*) Pierre Bachelet مُغنّ فرنسيّ.